

نشریه ادبیات پایداری

دانشکده ادبیات و علوم انسانی

دانشگاه شهید باهنر کرمان

سال اول، شماره دوم، بهار ۱۳۸۹

مظاهر ادب المقاومة فی شعر نزار قبانی* (علمی-پژوهشی)

دکتر جواد سعدون زاده

استادیار دانشگاه شهید چمران اهواز

چکیده

این مقاله درباره‌ی شاعر پراوازه‌ی معاصر سوری، نزار قبانی، نوشته شده است. رویکرد این نوشتار پیرامون ادب مقاومت می باشد. جلوه‌های ادب پایداری به قرار ذیل از مجموعه‌ی اشعار سیاسی این سخن سرا مورد نقد و بررسی قرار گرفته است:

وطن دوستی، فلسطین، قدس، تعهد ملی و محبت کشورهای عربی، بیروت، گذشته‌ی افتخار آمیز، حکمران و ملت، حکمران عرب و مسأله‌ی فلسطین، فرزندان سنگ، کودک عرب امید آینده، نیروهای امنیتی و بازجویی، آزادی و مبارزه، سلطه‌ی آمریکا، عدم آزادی اندیشه.

واژگان کلیدی

نزار قبانی، ادب مقاومت، شعر.

* تاریخ دریافت مقاله: ۱۳۸۸/۱۰/۲۲ تاریخ پذیرش نهایی مقاله: ۱۳۸۹/۲/۲۵

نشانی پست الکترونیک نویسنده: sadoun_zadeh@msrt.ir

١- المقدمة

لقد مرّ على شعر نزار قبّاني أطوار من النضوح و التطور، استمدت من الأحداث الكثيرة و المتنوعة التي طرأت على حياة هذا الشاعر الكبير. و قد انطبعت بصمات هذه الأمور على صفحات فكره و مشاعره و خياله كما تجلّت و تبلورت بتمام حقيقتها في قصائده و مقطوعاته، تحمل في طياتها تفسيراً كاملاً و وافياً لرغبات الشاعر و نزعاته في شتى المجالات.

و لا شك أنّ الطور النضالي و الثوري الذي ظهر في إبداعه الشعري، هو حصيلة تطور نفسي خلقت له يد الأحداث الرهيبة التي حلّت بواقع المواطن العربي ممّا هزّ شاعرنا من الأعماق و فجّر في كيانه شلالاً تدفّق منه معين أدب راق، ما عُرف اليوم بأدب المقاومة و إلى كشف مظاهر هذا الأدب يصبو هذا المقال !

٢- ولادته و نشأته

ولد نزار قبّاني في ٢١ مارس عام ١٩٢٣م في حيّ (مئذنة الشحم) بدمشق (أبو علي، نبيل خالد، ١٩٩٩م، ص ١١).

لأسرة ميسورة الحال، كان أبوه توفيق قبّاني هو صاحب محلّ لصناعة الحلويات و قد شارك في مقاومة الإنتداب الفرنسي على سوريا، رزق «توفيق قبّاني» بالمولود الثاني من زوجته «فائزة» في الحادي والعشرين من مارس ١٩٢٣م. الفرحة غمرت البيت و كان الأب و الأم قد شعرا بأنّ هذا المولود بالذات سيكون ذا شأن، و اختير له اسم «نزار» (أبو السعود، صلاح، ٢٠٠٣م، ص ٧).

فأهم ما ورثه نزار عن أبيه، إضافة إلى الملامح الظاهرة هي الازدواجية في شخصية والده لأنّه كان يجمع بين صنع الحلوى و صنع الثورة كما قال نزار المعجب بتلك الازدواجية التي انتقلت إليه و إلى شعره. و قد تحدّث نزار عن والده توفيق القبّاني بكلّ فخر و اعزاز قائلاً :

«شارك والدي مشاركة فعّالة بوقته و ماله في أعمال المقاومة ضدّ الانتداب الفرنسي على سورية، و كانت دارنا في الثلاثينات مركزاً يمارس فيه السياسيون و السوريون نشاطهم الثوري، و يرسمون خطط المقاومة، و يخطبون في الناس المجتمعين في ساحة منزله الفسيحة، و باختصار كان بيتنا ساحةً شعبيةً للنضال، و

كانت طفولتي الأولى في هذا المناخ الثورى. بيتنا كان من البيوت الدمشقية الوارفة الخضرة الدافقة الماء، و على هذا السرير الأخضر المغزول برائحة الورد الدمشقى و غناء العصفير نطقتُ كلماتي الأولى» (أبو على، نبيل خالد، ١٩٩٩م، ص ١٤).

ولكن يبدو تأثير هذا المناخ الثورى لم يكن تأثير بالغ الأهمية بل كان تأثيراً بطيئاً على شعر نزار السياسى لأنَّ شعره السياسى لم يتفجّر عنده إلا بعد نكسة حزيران نظراً للأحداث التى واكبت حياة نزار قباني على مستوى العالم العربى، و لا سيما القضية الفلسطينية. و يتحدث نزار عن الصفات التى ورثها من أسرة أبيه عامّة و أبيه خاصة، و من ذلك قوله:

«فى الحادية عشرة من عمرنا نصبح عاشقين، و فى الثانية عشرة نسأم... من جديد... و فى الحادية عشرة يصبح الطفل فى أسرتنا شيخاً... و صاحب الطريقة فى العشق. جدى كان هكذا... و أبى كان هكذا... كلنا نعانى هذه الحساسية المفرطة أمام أشياء الجمال...» (المصدر نفسه، ١٩٩٩م، ص ١٧).

و تبدو هذه الظاهرة البالغة لها تأثير مباشر على نزار لأنه تغزل بالمرأة و عُرف بشاعر المرأة و شاعر الحب نظراً لتأثير الخلفية العائلية على نفسية الشاعر.

و أمّا أمّه التى يذكرها الشاعر بأنها ينبوع حنان و عاطفة جياشة من الحب و الحنين فهى التى بحبها و حنينها علّمته الحبّ و الحنين وهى تعتبر نزاراً ولدها المفضّل و تخصّه دون سائر أخوته بالطيبات و تلبّى مطالبه. و فى حبّ الوالدة و حنينها يقول نزار فى ديوانه (الرسم بالكلمات) الذى صدر فى عام ١٩٦٦م (خمس رسائل إلى أمى) عندما كان فى المرحلة الدبلوماسية حيث كان موظفاً كبيراً فى وزارة الخارجية السورية:

أيا أمى ... أنا الوالد الذى أبحر...

و لازالت بخاطره

تعيش عروسه السكر

فكيف... فكيف يا أمى

غدوت أباً... و لم أكبر؟

مضى عامان يا أمى

و ليل دمشق... فلّ دمشق...

دور دمشق...

تسكن في خواطرنّا (قبّاني، نزار، ج١، ١٩٨٣م، ص ٥٣٠)

نرى هنا كيف يصوّر نزار حبّه و حنينه لأمّه و حبّه للوطن الذي صار بعيداً عنه فهو يأتي بمحبّه الوطن و الأمّ سواسيةً فالوطن هو الأمّ الكبرى و هو إن أصبح دبلوماسياً فهو لا يزال يحنّ إلى أمّه و يذكر حنينها و عاطفتها فهو مهما كبر لا يتكبّر، و لا يزال طفلاً يحنّ و لا ينسى أمّه التي هي ينبوع من الحبّ. ولكنّه ينكر وجود أيّ علاقة مشتركة بينه و بين أمّه على الصعيد الفكري إذ كانت والدته تعتقد اعتقاداً صارماً بما ذكره و كان يفضل تفكير أبيه الثائر. و في معرض المفاضلة بين تفكير الأب و الأمّ يقول:

«بين تفكير أبي الثائر، و تفكير أمّي السفلى، نشأت أنا على أرض من النار و الماء، كانت أمّي ماءً، و أبي ناراً، و كنت بطبيعة تركيبي أفضل نار أبي على ماء أمّي...» (قبّاني، نزار، ١٩٧٣م، ص ٢٥٦).

و في التشكيل العائلي كان نزار، الولد الثاني بين أربعة صبيان و بنتين (معتز و رشيد و هيفاء و وصال).

و «وصال هي الأخت الكبرى لنزار، و انتحرت وصال سنة ١٩٣٨م لأنّها لم تستطع أن تتزوج من حبيبها» (المصدر نفسه، ١٩٧٣م، ص ٧٢). و عندما قتلت نفسها ترك موتها جرحاً عميقاً في نفس نزار و يعدّ انتحار وصال هو السبب الأساسي من الأسباب التي فجّرت للشاعر شاعريته و إحساسه المرهف و جعلته يصرخ في شعر الحبّ بكل طاقاته و جوارحه، و هو يتساءل عن ذلك قائلاً:

«هل كانت كتاباتي عن الحبّ تعويضاً لما حرّمت منه أختي، و هو انتقاماً لها من مجتمع يرفض الحبّ و يطارده بالفؤوس و البنادق؟» (المصدر نفسه، ١٩٧٣م، ص ٧٢)

فهو يجيب عن السؤال الذي طرحه حول هذه القضية الهامة في واقع حياته قائلاً:

«إنتى لا أوكد هذا العمل النفسى و لا أنفیه ولكننى متأكد من أن مصرع أختى العاشقة، كسر شيئاً فى داخلى... و ترك على سطح بحيرة طفولتى أكثر من دائرة... أكثر من إشارة استفهام...» (المصدر نفسه، ۱۹۷۳م، ص ۷۲).

أما عن حياته الزوجية فتزوج نزار مرتين، المرة الأولى من المرأة السورية، «زهرة أبيض» عام ۱۹۴۶م وأنجبا توفيقا و هدياء. و قد توفى توفيق عندما كان فى السابعة عشرة من عمره أثناء إجراء عملية جراحية فى القلب فى لندن. أما هدياء فمتزوجة و مقيمة فى إحدى البلاد العربية، و المرة الثانية تزوج من السيدة العراقية، «بلقيس الراوى»، عام ۱۹۷۰م وأنجبت منه، عمر و زينب و قد توفيت بلقيس فى حادث انفجار السفارة العراقية فى بيروت عام ۱۹۸۱م خلال الحرب الأهلية فى لبنان فترك وفاتها أكبر الأثر فى نفسيته، وراثها بقصيدة رائعة أعطاها عنوان اسم زوجته «بلقيس» و هى تُعدُّ من روائع الشعر فى نهايات القرن العشرين (أبوعلی، نبیل خالد، ۱۹۹۹م، ص ۱۳ و ثابت، محمد و سمر الضوى، ۲۰۰۴م، ص ۸).

فجرت بلقيس قريحته و أحاسيسه كما صور فراقها و مقتلها فى هذه القصيدة حزناً و لوعة:

بلقيس ...

إنّ الحزن يثقبنى...

و بيروت التى قتلتك... لا تدرى جريمته

و بيروت التى عشقتك

تجهل أنّها قتلت عشيقته

و أطفأت القمر (قبانى، نزار، ۱۹۸۲م، ص ۲۸)

قال نزار عن مدى تأثير بلقيس زوجته على شخصيته و شعره: «بلقيس امرأة تطابقت مع مقاييس الشعر. و هذا شىء نادر فى تاريخ النساء و فى تاريخ الشعر... تزوجتنى و كانت تعرف أنّها تمسك الماء و النار فى قبضة يدها. و راهنت على مصادقة و حش الشعر فى داخلى، و ربحت الرهان... و عاشت مع العاصفة فى غرفة واحدة... إن الحياة مع شاعر، هى بكل تأكيد عمل انتحارى» (قبانى، نزار، ۱۹۹۰م، ص ۲۵۳).

نعم ها هى بلقيس التى تغنى بها الشاعر و قد أخذت منه مأخذاً كبيراً بصفاتھا و كمالها المحبب عند نزار.

٣- نشأته الدراسية

تلقى نزار تعليمه الابتدائي و الثانوى فى الكلية العلمية الوطنية بدمشق و كان النظام التعليمى حينذاك تحت رقابة الفرنسيين. انتهجت هذه المدرسة للمتعلمين منهجا حديثاً فى التدريس و اتخذت اللغة الفرنسية فيها هى اللغة الثانية و كذلك كانت الكتب الدراسية. كما وفد أساتذة هذه المدرسة من فرنسة. أثرت هذه الدراسة على أدب الشاعر تأثيراً جلياً، ذلك لأنه نهل فى بدايات حياته العلمية من ينابيع الأدب الفرنسى و قرأ لأدبائها، و بذلك تعرّف على الفكر الأدبى الأوروبى و ثقافته (قبّانى، نزار، ١٩٨٦م، صص ٤٠-٤١).

نال نزار قبّانى شهادة الثانوية فى هذه المدرسة، ثم التحق بكلية الحقوق فى جامعة دمشق عام ١٩٤٥م. و السنّة ذاتها دخل وزارة الخارجية و تولّى عدداً من المناصب، فعمل فيما بعد فى بلدان مختلفة، أدّى عمله فى السلك الدبلوماسى إلى اتساع نطاق أفكاره و ثقافته و اطلاعه على الحضارة الأوروبية الجديدة و آدابها (أبو على، نبيل خالد، ١٩٩٩م، صص ١٣ و ١٤).

٤- وفاته

توفى نزار قبّانى يوم الخميس الموافق ٣٠/٤/١٩٩٨م فى لندن و نقل جثمانه، حسب وصيته، ليدفن فى مقبرة الأهل فى دمشق، لأنّ دمشق كما يقول فى وصيته: «هى الرّحم الذى علّمنى الشعر وعلّمنى الإبداع، وأهدانى أبجدية الياسمين... وهكذا يعود الطائر إلى بيته و الطفل إلى صدر أمه» (صحيفة القدس، الصفحة الثانية عشرة، الجمعة ١/٥/١٩٩٨م). (ثابت، محمد، ٢٠٠٤م، ص ٨ و الخورى، جوزيف، ١٩٩٨م، ص ٢٤).

٥- أدبه

أصدر نزار قبّانى نحو (٣٥) مجموعة شعرية، ترجم بعضها إلى اللغات الأجنبية. فمن دواوينه الشعرية:

قالت لى السمراء (١٩٤٤م)، طفولة نهد (١٩٤٨م)، سامبا (١٩٤٩م)، أنت لى (١٩٥٠م)، قصائد (١٩٥٦م)، حبيبتى (١٩٦١م)، الرسم بالكلمات (١٩٦٦م)، يوميات امرأة لا مبالية (١٩٦٨م)، قصائد متوحشة (١٩٧٠م)، كتاب الحب (١٩٧٠م)،

مئة رسالة حبّ (۱۹۷۰م)، أشعار خارجه على القانون (۱۹۷۲م)، أحبک أحبک و البقية تأتي (۱۹۷۸م)، إلى بيروت الأثنى مع حبّی (۱۹۷۸م)، كل عام و أنت حبيبتى (۱۹۷۸م)، أشهد أن لا امرأة إلا أنت (۱۹۷۹م)، هكذا كتب تأريخ النساء (۱۹۸۱م)، قاموس العاشقين (۱۹۸۱م)، قصيدة بلقيس (۱۹۸۲م)، الحب لا يقف على الضوء الأحمر (۱۹۸۵م)، أشعار المجنونة (۱۹۸۵م)، قصائد مغضوب عليها (۱۹۸۹م)، سيبقى الحب سيدى (۱۹۸۷م)، تزوجتك أيتها الحرية (۱۹۸۸م)، ثلاثية أطفال الحجارة (۱۹۸۸م)، الأوراق السرية لعاشق قرمطى (۱۹۸۸م)، الكبريت فى يدى و دويلا تكم من ورق (۱۹۸۹م)، لا غالب إلا الحب (۱۹۹۰م)، هل تسمعين سهيل أحزانى (۱۹۹۱م)، هوامش على دفتر الهزيمة (۱۹۹۱م)، الشعر قنديل أخضر، فتح، هوامش على دفتر النكسة، إفادة فى محكمة الشعر، منشورات فدائية على جدران إسرائيل، أوراق خطيرة، لا، أحلى قصائدى، الخطاب: حوار مع أعرابى أضع فرسه، ترصيع بالذهب على سيف دمشق، الأعمال الشعرية الكاملة «مجلّدان»، الأعمال السياسية الكاملة، يوميات مدينة كان اسمها بيروت، قصيدة مايا (الجبورى، سلمان كامل، ۲۰۰۲م، صص ۳۰ و ۳۱).

و للشاعر أيضاً مؤلفات كثيرة. منها: شعراء الأرض المحتلة، عن الشعر و الجنس و الثورة، الكتابة عمل انقلابى، مقالات «شىء من النثر، المرأة فى شعري و حياتى، ما هو الشعر، العصافير لا تطلب تأشيرة دخول، الكلمات لا تعرف الغضب، مختارات نثرية «جمهورية جنونستان»، مسرحية «لعبت بإتقان وهاهى مفاتيحي»، حوارات «قصتى مع الشعر»، السيرة الذاتية لسيّاف عربى، فى السيرة الذاتية نزار قبانى... شاعر لكل الأجيال» (المصدر نفسه، ۲۰۰۲م، ص ۳۱).

۶- مظاهر أدب المقاومة عند نزار

۱-۶- الوطن

إنّ الوطن يبقى فى وجدان كلّ شاعر و ضميره، فالوطن يمثّل للشاعر غاية الحبّ، فكثيراً ما تغنّى الشاعر بحبّ وطنه لأنّه بينه و مأواه بل هو الكيان الأمثل

الَّذى يجب على أبناء الأمة أن يتفانوا دونه فهو هويّة الشعب و ماضيه و حاضره و مستقبله.

فنجذ نزار يعبر عن هذا الحبّ بأرقّ الكلمات و أعذب الألحان حاملاً أنشودة الوطن رايةً للأجيال:

عندما أشرب الكأس الأولى

أرسم الوطن دمة خضراء

و أفلح ثيابى

و أستحمّ فيها

عندما أشرب الكأس الثانية

أرسم الوطن على شكل امرأة جميلة

و أشنق نفسى بين نهديها

و عندما أشرب الكأس الثالثة

أرسم الوطن على شكل سجن

أرسم الوطن على شكل مشنقة

تتدلّى منها قصائدى فى احتفال مهيب

(قبّانى، نزار، ج ٣، ١٩٩٩م، صص ١٢١-١٢٥)

كان نزار وطنياً و حدودياً قومياً وصل حبّه للوطن إلى درجة العشق و قد كانت كل قصائده نضالية، هى ملاحم عشق لهذا الوطن و الوطن عند نزار هو الحبيبة و الحبيبة عند نزار هى الوطن كلاهما الحب و العشق و الحزن و الحنان و الأمان و السند (تاج الدين، أحمد، ٢٠٠٠م، ص٧٥).

٢-٦- فلسطين

أمّا القضية الفلسطينية فتبقى الرمز، فكلّ شاعر داعب الكلمات و صنع الشعر لا ينسى هذه القضية فما بالك لو كان عملاقاً كنزار فهو شاعر هذه القضية و لا تفارق خياله فهى محفورة فى أعماق وجدانه فهى الجرح و الخنجر و هى أمّ القضايا العربية فكم تغنى هذا الشاعر بفلسطين.

و كأن كلمات الشاعر تقاتل فوق الأراضى الفلسطينية لتسترجع الأرض
المغصوبة بلاد الزيتون و البرتقال و بلاد المسجد الأقصى و القبلة الأولى و القدس
الحبيبة.

يا فلسطين لا تزالين عطشى
و على النفط نامت الصحراء
يا فلسطين لا تنادى عليهم
قد تساوى الأموات و الأحياء
قتل النفط ما بهم من سجايا
و لقد يقتل الثرى الثراء
يا فلسطين لا تنادى قريشاً
فقريش ماتت بها الخيلاء
لا تنادى لم يبق إلا النساء
كم أعانى مما كتبت عذاباً
و يعانة فى شرقنا الشرفاء

(قبانى، نزار، ج ۳، ۱۹۹۹م، صص ۴۰۵-۴۰۹)

هذه القصيدة (إفادة فى محكمة الشعر) التى ألقاها فى مهرجان الشعر التاسع
ببغداد فى نيسان من عام ۱۹۶۸م.

«تظهر فلسطين مخضبة بدمائها و العرب يتباحثون فى القشور. و يأتون كل
علم ليلقوا الشعر و قد استوت مكانة ذلك الشعر بمكانة الحذاء عند نزار و كل ذلك
و فلسطين تنتظر الفرسان العرب ليعيدوها إلى أحضان الوطن العربى و نزار يعانى
بسبب التزامه بالوطن و حبه و إخلاصه له» (دهان، ميرفت، ۲۰۰۲م، ص ۹۰).

۳-۶- القدس

أما أكثر المدن الفلسطينية التى تغنى بها الشعراء، فهى القدس، لأنها رمز للأمة
الإسلامية فكثيراً ما حزن الشعراء لهذه المدينة، و لما حلّ بها من قبل عدو الأمة
الإسلامية إسرائيل من آهات و ويلات فنجد نزاراً يبكى هذه المدينة لوعةً و
جزعاً فى قصيدته قائلاً:

بكيت حتّى انتهت الدموع
صلّيت حتّى ذابت الشموع
ركعت حتّى ملّنى الركوع
يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء
يا قدس يا مدينة الأحزان
يا دمعة كبيرة تجول فى الأجفان
من يوقف العدوان
عليك يا لؤلؤ الأديان
من يغسل الدماء عن حجارة الجدران
يا قدس يا حبيبتى
غداً غداً سيزهر اللّيمون
و تفرح السنابل الخضراء و الغصون

(قبانى، نزار، ج ٣، ١٩٩٩م، صص ١٦١-١٦٤)

ها هى الكلمات تعبّر عمّا فى ضمير الشاعر من حُزن تجاه هذه المدينة المقدّسة التى هى القبلة الأولى للمسلمين و هى مدينة المعراج ولكنّه رغم حزنه و الدموع التى باتت تنتهى لغزارتها، فالشاعر له أملٌ فى الغد فسوف تفرح القدس بانتهاء العدوان.

«و نراه يركع و يصلّى و يبكى على أعتاب القدس المدينة الجليّة و قد احتلها اليهود و راحوا يضعون بصماتهم الصهيونية على مقدساتها و انتهكوا حرمة المسجد الأقصى. فالقدس هى المدينة التى اجتمع فيها الأنبياء، مسجد ها هو المسجد الذى صلّى فيه الأنبياء. و يتساءل نزار عن سعيّد السنابل الخضراء و الغصون» (دهان، ميرفت، ٢٠٠٢م، صص ٩٢-٩٣).

فالقدس أصبحت رمزاً فهى مدينة الشموخ والكبرياء فهى تصمد أمام التحدّى و تقاوم الاحتلال و وقفت ضد الظلم و العدوان و حول ارتباط هذه المدينة بالأديان و رحلة المعراج جاء:

نشریهی ادبیات پایدارى / ۱۵۵

«بسبب الإلهام و العطف الإلهى و التجلىّ فى سيرة نبوية خالدة شكّلت نقطة الإعجاز فى مسار الإسلام» (حسين، يسر، ۲۰۰۳م، ص ۱۳۵).

۴-۶- الالتزام القومى و حبّ البلاد العربية

و من البلاد العربية التى تغنىّ بها نزار لبنان لما حلّ بها من دمار إثر التدخل الأمريكى لمساعدة إسرائيل و سكوت المجامع العربية إزاء ذلك فلم تسمع سوى التنديد من قبل هذه المجامع و الحكام العرب المتآمرين مع العدو، و المؤتمرات العربية لا جدوى منها فحبّ هذه الديار شغف قلب الشاعر و التهاون العربى قائماً على أكفان خرائب هذه البلاد فنجد نزار قائلاً:

جميعهم موتى و لم يبق سوى لبنان
يلبس فى كلّ صباح كفننا
و يشعل الجنوب إصراراً و عنفوان
جميعهم قد دخلوا حُجورهم
و استمتعوا بالسّمك و النساء و الريحان
جميعهم مدجّن مروض منافع مزدوج جبان
و وحده لبنان
يصفع أمريكا بلا هوادة
و يشعل المياه و الشيطان
فى حين ألف حاكم مؤمرك
يأخذها بالصدر و الأحضان
هل ممكن أن يقعد الإنسان دائماً مع الهوان
الله يا زمان
(قبانى، نزار، ج ۶، ۱۹۹۹م، ص ۳۰)

۵-۶- بيروت

فكما هتف الشعراء لفلستين و القدس هتفوا أيضاً للبنان و لبيروت و راحت الكلمات تداعب الألحان و الموسيقى لتصنع كلاماً جميلاً لحب هذه المدينة و

تصرخ بأعلى صوتها لقتل الناس الأبرياء فیتساءل نزار أين العرب لمّ السكوت قبل
هذه الجريمة و الذبح؟

بيروت أرملة العروبة

و الحواجز

و الجريمة و الجنون

بيروت تذبح فى سرير زفافها

و الناس حول سريرها متفرجون

فأين فرّ العاشقون

ولكن الجميع مناققون

تتوسل الأشجار باكية معى

أرأيتم شجراً يفكر بالهروب

هذا هو الزمن... الفضائح و الخيانة و الذنوب

(المصدر نفسه، ج ٦، ١٩٩٩م، صص ٨٥ و ٨٦)

فنزار يصوّر بيروت على شكل امرأة جميلة فى ثياب العُرس ولكن تُذبح و
عشاق هذه الحبيبة يتخلون عنها.

«كان الثأر... لنزار عند العرب وهو مقتل الآمنين و الأبرياء العزل من السلاح
والعرب يتفرجون على بيروت التى تذبح و تغتصب و لا تشور لهم كرامة و لا
يتحرك كبرياء» (تاج الدين، أحمد، ٢٠٠٠م، ص ٨٦).

٦-٦-٦ بلاد الماضى المجيد

ذكر نزار الماضى المجيد و الحاضر الملىء بالظلم و انتهاك الحقوق و عدم
الاهتمام بالشعوب قائلاً:

ما هذه مصر فإن صلاتها

عبريّة و إمامها كذاب

ما هذه مصر فإن سماءها

صغرت و إن نساءها أسلاب

إن جاء كافور فكم من حاكم

قهر الشعوب و تاجُهُ قيقاب

(قبانى، نزار، ج ۶، ۱۹۹۸م، صص ۶۴۴-۶۴۵)

فنزار يتساءل عن ماضى هذا البلد العريق أين تلك الحضارة و الماضى
المجيد فيربط الماضى بالحاضر الذى انتشر فيه الظلم و حكمت مصر سلسلة من
الطغاة و عبثت بالماضى العريق و التأريخ المجيد و حقوق أبناء هذا الشعب.
«تأريخ شعب يحاول تزويره كافور هذا الزمان الذى جورّ فيه فيواصل نزار
قبانى هجاءه لحاكم مصر فبرأى الشاعر أخطأ بحق مصر الشعب و التأريخ».
(فقيه، يونس أحمد، ۱۹۹۸م، ص ۱۵)

۷-۶- الحاكم و الشعب

و عن علاقة الحاكم بالشعب فى البلاد العربية و عن هذا الواقع المرير من نظرة
الحاكم للشعب نجد نزار قبانى يعبر عن هذه العلاقة بسخرية مريرة و أسلوب لاذع
كما خاطب نزار الشعب من لسان الحاكم و وصفه بالدجاج و ما هو إلاّ لأنّه لا
يمثّل له شيئاً قط.

نحن دجاج القصر

نأكل قمح الخوف

و نشرب من أمطار الملح

كل نهار

يأتينا البوليس قبيل صلاة الصبح

يهددنا

و يعلّقنا

بين السيف و بين الرمح

نحن دجاج القصر

يعلفنا فى فصل الصيف

و يذبّحنا فى عيد عيد الفصح

(قبانى، نزار، ج ۶، ۱۹۹۹م، ص ۲۹۸)

«يُحجم نزار المأساة و يحددها فهى ببساطة العلاقة الغير المتكافئة بين الحاكم و المحكومين بين آلهة و عبيد بن صاحب القصر و المواشى التى تربي فى قصره يعلفها و يسمنها لكى يذبحها فيأكل لحمها و يستفيد من جلدها و فرائها بل أحياناً يصوّرتلك الجماهير بأنّها أقلّ شأنًا من الماشية فهم مجرد دجاج و حين يتحدّث هنا عن الفوارق الطبقيّة بين الحكام و المحكومين مستعرضاً صورة بشعة من صور القمع من خلال رجال البوليس و ما تمثّله كلمة بوليس عند القارئ العربى من خليفة غير مستحبة، هذه الفوارق الطبقيّة لها جوانب متعدّدة، فوارق من المستوى المعيشى و التخويف و التجويع هؤلاء الحكّام الطغاة انزلوا عن الشعب و عاشوا فى طبقة مرفهة متعالية بينما الجماهير مظلومة و محرومة» (فقيه، يونس أحمد، ١٩٩٨م، ص ١٣٠).

٨-٦- الحاكم العربى و القضية الفلسطينية

فكما رسم الشاعر صورة الحاكم مع أبناء شعبه رسم صورته أمام القضية الفلسطينية و بيّن الشاعر الحاكم العربى أمام الشعب العربى. فنجد نزار قبانى عندما يصدر قصيدته (الحب و البترول) عام ١٩٥٨م.

«أعلن فيها الحرب على الحكام العرب و جعلهم الشماعة التى وضع عليها الأخطاء و القصيدة تحتوى على هجوم شديد و هجاء لاذع للذين يهدرون الثروات العربية على الغوانى و الملذات و ينامون عن نصرّة قضايا النضال العربى» (تاج الدين، أحمد، ٢٠٠٠م، صص ٢٨ و ٢٩).

تمرغ يا أمير النفط فوق و حول لذاتك

كممسحة تمرغ فى ضلالتك

لك البترول فاعصره على قدمى خيلتك

كهوف الليل فى باريس قد قتلت مروءاتك

على أقدام مومسة هناك

دفنت ثاراتك

فبعث القدس بعت الله

بعث رماد أمواتك

كأن حراب إسرائيل لم تجهض شقيقاتك
و لم تهدم منازلنا و لم تحرق مصاحفنا
تغوص القدس فى دمها
و أنت صريع شهواتك
تنام كأنما المأساة ليست بعض مأساتك
متى تفهم

(قبانى، نزار، ج ۳، ۱۹۹۹م، صص ۶۶ و ۶۷)

۹-۶- أبناء الحجارة

اتَّجّه نزار إلى أطفال الحجارة الذين انشقوا من الصخور ليحاربوا إسرائيل
بحجارتهم الصغيرة و ذلك بعد أن اتَّجّه إليهم فى أواسط الخمسينات و علق
الآمال عليهم ليستعيدوا الأرض و الكرامة العربية فى قصيدة (راشيل شوار زنبرغ).
يطالب نزار الصغار أن يثأروا من اليهود الذين ارتكبوا أبشع المذابح و
الانتهاكات فى حق الشعب الفلسطينى فقد سلبوا و ذبحوا و يتّموا الأطفال فهم
صنعوا وطناً جديداً و قلبوا أوراق التاريخ
بهروا الدنيا

و ما فى يديهم إلاّ الحجارة

قاموا

و انفجروا

و استشهدوا

(قبانى، نزار، ج ۶، ۱۹۹۹م، ص ۲۰۳)

و كما قال أيضاً :

يرمى حجراً

أو حجريّن

يقطع أفعى إسرائيل إلى نصفين

من هو

هذا الولد الزارع

قمح الثورة

فى كل مكان

تسأل صحف العالم

كيف صبى مثل الوردة

يمحوا العالم بالممحة

(المصدر نفسه، ج ٣، ١٩٨١م، ص ١٠٣)

«أطفال الحجارة المساكين يسقطون جرحى يسقون الأرض بدمائهم و يحملون نور الفجر فى عيونهم هؤلاء الأطفال الشياطين بأفعالهم الملائكة بطهرهم و عزيزتهم أنبياء الفرح الذين يستخرجون الفلسطينيين من رحم الأحران» (دهان، ميرفت، ٢٠٠٢م، ص ١٠٨).

١٠-٦- الطفل العربى أمل المستقبل

كما هتف نزار للطفل الفلسطينى بصورة خاصة لم ينس الطفل العربى بصورة عامة فهو يرى فى هؤلاء صغار اليوم كبارالغد، الأمل الذى فقده العربى منذ زمان فهو يصرخ للصغار على مختلف الأعمار و ينبههم أن قضيتهم هى قضية الأرض. والأمل العربى الوحيد الطفل العربى أمل المستقبل ليصنعوا البطولات و يمحو ما صنعه الكبار من خيبة أمل و ضياع للأراضى ليحسوا ما قيمة التراب و ما هو الوطن.

أكتب للصغار

للعرب الصغار حيث يوجدون

لهم على اختلاف اللون

و الأعمار و العيون

و ليذكر الصغار

حكاية الأرض التى ضيعها الكبار

فليذكر الصغار حيث يوجدون

من ولدوا منهم و من سيولدون

ما قيمة التراب

لأن فى انتظارهم

معركة التراب

(قبانى، نزار، ج ۳، ۱۹۹۹م، صص ۲۷-۳۸)

و لأن الكبار هم الذين أضاعوا القضية و فرطوا فى الوطن فهو يعقد الآمال على الأطفال الذين يصنعون المستقبل المشرق باسم والغد النظيف البرىء من كل آثام الماضى.

نلاحظ أن الشاعر هنا يعلّق على الانتقام لكل الخطايا و أخطاء الكبار و يظل نزار حتّى النزاع الأخير مؤمناً بالأطفال بالجيل الذى يصنع من اليأس أملاً من الظلام فجراً لعصر جديد (تاج الدين، أحمد، ۲۰۰۰م، صص ۱۸۹ و ۱۹۰).

فالأمل عند نزار فى الطفل العربى مازال باقياً فهو مؤمن بقدرات الطفل العربى صانع المعجزات كيف سيخذل العدو أمام صمود الطفل العربى ولا أحد يستهان بهذه القدرات.

«سبباً أجساد أطفال العرب جميعاً رؤساً نووية سينقلب السحر على الساحر و ما أحداً يستهين بقوى الشعب» (نعسان آغا، ر ياض، بلاتا، ص ۱۶۸).

۱۱-۶- الاستخبارات و الاستجواب

لم يختلف هذا الجانب عن رؤية الشاعر نزار قبانى فيحاول كشف هذه الأمور للقارئ و لأبناء شعبه و أمته فى قصيدة الخطاب.

أوقفونى

و أنا أضحك كالمجنون وحدى

من خطاب كان يلقيه أمير المؤمنين

كلفتنى ضحكتنى عشر سنين

سألونى

و أنا فى غرفة التحقيق، عمن حرّضونى

كنت بعد الظهر فى المقهى

وكان البهلوان

يلبس الطرطور بالرأس

و يلقى كل (ما يطلبه المستمعون)

(قبّانى، نزار، ج٣، ١٩٩٩م، صص ٢٦١-٢٦٥)

يكشف الشاعر هنا عن الاعتقالات و الاستجابات بسبب تُهم أو تقارير واهية و حال المواطن العربى فى غرف التحقيق و لا ينسى الشاعر أسلوبه الساخر فهو يعبر عن الخطب التى يلقيها الحكام بما يطلبه المستمعون من الأغاني مستخفاً بها و يعبر عن الحكام بالبهلوان الذى يلبس الطرطور و يضحك الناس.

«يصور الشاعر اعتقاله و استجابته لأنّه ضحك من خطاب أمير المؤمنين و نزار يريد أن يصور حال الشعب و حال الحكام فالحاكم العربى بارع فى إلقاء الخطب الهوائية و على أفراد الشعب الاستماع و الإصغاء و إلا كان الاعتقال و التعذيب هو النتيجة و هو يصور كلّ ذلك لقطة وراء لقطة حتى تكتمل لنا الصورة التى يريد أن نراها و هى الفساد و الظلم» (دهان، ميرفت، ٢٠٠٢م، ص ٢٢١).

١٢-٦- الحرية و النضال

و من القضايا التى اهتم بها الشاعر هى الحرية، الحرية التى لا يصل فرد أو مجتمع الآمن خلال نضال طويل و عناء كبير فيصل الشاعر فى النهاية إلى أنّ طريق الحرية هو السلاح فهو وحده الذى يحرر الشعب من الظلم و هو وحده صانع الحق فيهدف نزار للحرية التى يأخذها السلاح و يستردها بالقوة.

أريد بندقية

خاتم أمى بعته

من أجل بندقية

محفظتى رهنتها

من أجل بندقية

أصبح عندى الان بندقية

(قبّانى، نزار، ج٣، ١٩٩٩م، صص ٣٢٧-٣٢٨)

كان الجميع يؤمن و يدرك أن الطريق إلى التحرير هو السلاح الذى اتخذه الشاعر رمزاً له كلمة البندقية، أريد بندقية من أجل تلك الأمنية العالية والمطلب الغالى بعث الغوالى والأشياء الثمينة خاتم أمى و محفظتى رهنتها حتى أوراقي الغالية

نشریهی ادبیات پایدارى / ۱۶۳

من أجل ما هو أغلى(الآن) و هو البندقية التى يتضاءل أمامها كل تراثنا من أدب و كتب و شعر (خورشا، صادق، ۱۳۸۱هـش، ص ۲۰۱).
بعد أن هتف الشاعر للحرية التى لا تأتى إلا عن طريق السلاح يحرض الناس إلى الثورة ضد الظلم و صار يشكو سكوت الشعب فهو ينظر و يغض النظر عن ما يجرى حوله مما دفع الشاعر إلى الصراخ فى هذا المجال.

لماذا الجماهير

بين المحيط و بين الخليج

تجوب الأزقة بالقطط الخائفة

و أين هو الشارع العربى

الذى كان يمضغ لحم الطغاة

و يخترع العاصفة

فأين هو الشارع العربى

الذى كان يصبق ناراً

و لا يعرف الفرق بين القصيدة و القنبلة

(قبانى، نزار، ج ۶، ۱۹۹۹م، صص ۲۵۷-۲۶۰)

لقد سئم نزار من السكوت و الصمت الذى يلف الأراضى العربية رغم كل المعاناة و كل المآسى التى تملأ الساحات العربية لقد أصبح انعدام الاحساس شيئاً طبيعياً و عادياً حتى تحجرت القلوب و المشاعر فالشارع العربى هو الذى أشعل الأراضى العربية ناراً وهو الذى حشد العرب صفاً واحداً (تاج الدين، أحمد، ۲۰۰۰م، ص ۷۷).

۱۳-۶- الهيمنة الأمريكية

أمريكا فى الآونة الأخيرة سيطرت على العالم بصورة عامة و ازدادت سيطرتها و نفوذها فى العالم العربى فنزار يصرح أن ما يجرى فى الساحة العربية هو مخطط أمريكى صهيونى فما يجرى فى البلاد العربية هو صنع يد أمريكا.

كان نصف المهر بالدولار

كان الخاتم الماسى بالدولار

١٦٤ / مظاهر أدب المقاومة فى شعر نزار قبانى

و الكعكة كانت هبة من أمريكا
وغطا العرس و الأزهار و الشمع
كلها قد صنعت فى أمريكا
(المصدر نفسه، ٢٠٠٠م، ص ٦٧)

كان أهم ما لفت نظر نزار الحضور الأمريكى و الضغط الأمريكى بل و الهيمنة
الأمريكية التى صبغت كل شىء بصبغتها (المصدر نفسه، ٢٠٠٠م، ص ٦٧).

١٤-٦- عدم حرية الرأى

فقد ارتفع صوت الشاعر لعدم وجود حرية الرأى بصورة خاصة، صرخ لعدم
وجود الحرية بصورة عامة فى الوطن العربى فقال:

يا سائلى عن حاجتى
الحمد لله على الصحة و الرغيف
و ما تقول الصحف اليومية
عندى صغار يملأون البيت
و زوجته و فية
لكننا مشكلتى
ليست مع الخبز الذى آكله
و لامع الماء الذى أشربه
مشكلتى الأولى هى الحرية

(قبانى، نزار، ج ٦، ١٩٩٩م، ص ٢٠٢)

فهنا الشاعر يصرح أن المشكلة فى الوطن العربى ليست الأكل أو الشرب فهو
متوفر ولكن المشكلة الفرد فى الوطن العربى عدم الحرية بأنواعها.

و أيضاً قال:

أتجول فى الوطن العربى
لأقرأ شعرى للجمهور
فأنا مقتنع

أن الشعر رغيف يخبز للجمهور

یرمینی العسکر للعسکر
و أنا لأحمل فى جیبى إلاّ عصفور
لكن الضابط یوقفنى
و یرید جوازاً للعصفور
تحتاج الكلمة فى وطنى
لجواز مرور

(المصدر نفسه، ج ۳، ۱۹۹۹م، صص ۲۴۳-۲۴۴)

نجد الشاعر يشكو من هذا الوضع فى البلاد العربية فتحتاج حكمة الشاعر كى
تصل إلى القارى إلى الجوازات و إذن من قبل السلطات فالشاعر يشكو و يتألم
لعدم حرية الرأى فى البلاد العربية و على السيطرة الإعلامية من قبل الحكومات و
الضغط الإعلامى فهو ینادى بحرية الفكر و ینتقد عدمها فهذه حقيقة ما یرجرى فى
البلاد العربية.

فإذا كان الناس يعيشون فى أجواء مليئة بالخوف و سيطرة من قبل حكّام
شرسین لا يعرفون فى تعاملهم مع أبناء الشعب غير لغة الإجمام و الإعدام فلا
جدوى من مطالبة الحرية بالرأى بل السبيل الوحيد هو الإطالة بنظام الحكم.

نزار الذى خرج من شرقة الظلم و القهر و سافر إلى معظم دول العالم و تنسّم
الهواء و عاش الحرية فى كلّ دول العالم آمن بالحرية و تعبّد فى محرابها كرسى
حياته يتغنى بها و يطالب بها للشعوب العربية التى حرمت منها رغم أنها ضحت فى
سبيلها بملايين الضحايا و الشهداء فالشاعر يتكئ على الحرية و المعنى المفقود
فليست مشكله الشعب الخبز و الماء رغم أنه يعيش على الكفاف بل إن المشكلة التى
یبحث عنها هى الحرية رغم ذلك فإنّ الحكام تصيهم حساسية من تلك الكلمة و
يعتقدون أن الشعوب عقولها فى معدتها. (تاج الدين، أحمد، ۲۰۰۰م، ص ۸۵)

فنزار يهتم بالشعب و مشاكله فهو يطالب حكّام العرب بالحرية للشعوب التى
اضطهدت خلال مسيرتها فى هذا الوطن الكبير فمن حق الناس والشعوب أن تتمتع
بالحرية.

٧- النتيجة

- يمكننا أن نلخص نتائج هذا البحث كما يلي:
- كان نزار قبّاني بداية الأمر شاعر الحبّ و الغزل و المرأة و ذلك معروف في الادب العربي المعاصر.
 - تحوّل شعر نزار قبّاني في مرحلة حاسمة من حياته و اتخذ الحرية و النضال من أجلها دينه و مذهبه، حيث صار شاعراً ثورياً يواجه الظلم و الاحتلال الصهيوني المسيطر على أرض فلسطين المقدمة.
 - شعر نزار قبّاني المقاوم، مظهر من أسمى و أعلى مظاهر شعر المقاومة في الادب العربي المعاصر.
 - يعبر نزار قبّاني في أناشيده المقاومة عن آراءه السياسية و التاريخية تجاه قضايا الأمة الاسلامية و العربية. و بذلك يعدّ من أركان الشعر المقاوم و من الشعراء الذين قاموا بمواجهة الاستعمار مطافحين الكيان الصهيوني و ذلك متبلور في قسم هامّ من أشعاره.

المصادر

١. أبو علي، نبيل خالد: نزار قبّاني شاعر المرأة و السياسة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م.
٢. تاج الدين، أحمد: نزار قبّاني والشعر السياسي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ١٤٢١هـ ق.
٣. الجبوري، كامل سلمان: معجم الشعراء في العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، بلاتا.
٤. خورش، صادق: مجاني الشعر العربي الحديث و مدارس، دفتر نشر و فرهنگ إسلامي، ١٣٨١ هـ. ش.
٥. الخوري، جوزيف: نزار قبّاني ثورة و حرية، دارنوبيليس الأشرفية، لبنان، بيروت، ١٩٩٨م.
٦. دهان، ميرفت: نزار قبّاني و القضية الفلسطينية، بيان للنشر و التوزيع و الاعلام، ٢٠٠٢م.
٧. شكيب انصاري، محمود: تطور الأدب العربي المعاصر، انتشارات دانسگاه شهيدچمران، ايران، أهواز، ١٣٧٦هـ. ش.
٨. الفاخوري، حنا: الجامع في تاريخ الأدب العربي، العصر الحديث، منشورات ذوى القربى، بلاتا.
٩. فقيه، يونس أحمد: ملامح الالتزام القومي في شعر نزار قبّاني، دار بركات للطباعة و النشر و التوزيع، لبنان، بيروت، ١٩٩٨ م.
١٠. قبّاني، نزار: الأعمال السياسية الكاملة، منشورات نزار قبّاني، لبنان، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

نشریهی ادبیات پایدارى / ١٦٧

١١. قبانى، نزار: الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قبانى، لبنان، بيروت، ط ١٤، ١٩٩٨م.
١٢. قبانى، نزار: تزوجتك ... أيتها الحرية، منشورات نزار قبانى، لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٩٠م.
١٣. قبانى، نزار: قصتى مع الشعر، منشورات نزار قبانى، ١٩٧٣م.
١٤. قبانى، نزار: قصيدة بلقيس، منشورات نزار قبانى، لبنان، بيروت، ١٩٨٢م.
١٥. قبانى، نزار: لعبت باتقان وهاهى مفاتيحي، منشورات نزار قبانى، ١٩٩٠م.
١٦. قبانى، نزار: المرأة فى شعرى و فى حياتى، منشورات نزار قبانى، ١٩٧٥م.
١٧. نعسان، آغا، رياض: بين السياسة و الاعلام (دراسة و مقالات)، دار الفكر، لبنان، بيروت، بلاتا.
١٨. يسر، حسين: آراء فى دفتر الأدب و الفن البحث عن الهوية، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣م.